دلالة المكان وتجلياته في الشعر العربي المعاصر في السودان

✍ . د. عبد الله محمد الأمين أحمد (★)

المقدمة :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد ارتبط الإنسان بالمكان منذ القدم من نزول آدم عليه السلام وحواء إلى الأرض، والمكان في تصور الإنسان القديم سابق للزمان، لأن أي جسم يجب أن يوجد أولاً في المكان، ومن ثم تتحد طبيعته في الحركة وزمانها فيما بعد، وظل هذا التصور للمكان حتى القرن الرابع قبل الميلاد، أي قبل ظهور الفلسفة على يد أرسطو طاليس.

إذن المكان أحد أبرز العناصر الدالة على وجود الإنسان ونشاطه، ومستوى تفكيره، وهما يرتبطان ببعضهما ارتباطاً حيوياً فلا يمكن أن يعيش الإنسان بدون مكان، كما لا يمكن تصور المكان وتحديده إلا بوجود الإنسان فيه، لذلك وجدت فكرته مع خلق الإنسان، ثم نمت وتطورت بنمو العقل البشري

(★) أستاذ النقد الأدبي بالجامعة والمعار لجامعة المجمعة بالسعودية

وتطوره.

وبهذه الصلة الحميمة بين الإنسان والمكان أصبح الحس المكاني جزءاً من الطبيعة البشرية فهو حس أصيل وعميق في الوجدان الإنساني.

وقد لعبت فكرة المكان دوراً أساسياً في الفكر الإنساني قديماً، كما تلعب هذا الدور نفسه حديثاً، وقد أدرك الإنسان هذا الدور المتميز للمكان في وجوده، فالإنسان يلاحظ من خلال حياته اليومية أن الأشياء والأجسام تشغل حيزاً أو مكاناً ما، وإن الجسم الواحد لا يشغل مكانين في آن واحد، وكذلك المكان لا يحوي جسمين منفصلين في زمان واحد، وعلى هذا الأساس، فإن العقل البشري لا يستطيع ببداهته رفض المكان محتوى للأجسام فالمكان عنده ضرورة للأشياء من أجل تمييزها وإدراكها.

وإذا حاولنا في هذا الجانب تقصي موقف الإنسان وتصوره للمكان، فإننا نجد أن تصوره للمكان كان مرتبطاً بالوجود المحسوس للأشياء في العالم الخارجي، ومن هنا كانت الصور الذهنية للمكان لدى الإنسان البدائي هي صور لمظاهر حسية، تشير إلى مواقع لها لون عاطفي.

إن المكان يمثل الخير الأكبر في حياة الإنسان، فهو وطنه الذي يعيش فيه، فيضمه ويحميه، والمكان عند أهل اللغة: الموضع الحالي للشيء [1]، أما في مجال الأدب فيمثل المكان محوراً أساسياً من المحاور التي تدور حولها نظرية

(1) انظر المعجم الوسيط- ج2- إبراهيم مدكور وآخرون- مجمع اللغة العربية- القاهرة- 1975م- مادة (كان)- ص981.

الأدب، فقد اهتم طوال تاريخه الطويل بالمكان، لأن الإنسان دائماً ما يوجد في المكان، ولأن الأحداث تدور في الأمكنة، وتجدر الإشارة إلى عمق ارتباط الزمن بوصفه طرفاً طبيعياً بالمكان، وفي نطاق هذا الارتباط تكون التجربة البشرية في الأدب، كما هي في الواقع، ولأن شيئاً منه لا يقع إلا في مكان، والمكان يحتوي الزمن والبعد الإنساني في الواقع، لهذا بقي المكان مرتبطاً بالتاريخ والحضارة، ومشهداً حياً على التطور والتغيير، وسجلاً أميناً على الأحداث والمواقف والقيم في إطارها الفردي والجماعي... إذن فالمكان يشكل إطار كل حياة، وحيز كل تجربة وحدث، والمكان لم يعد ذلك الوعاء أو الإطار التكميلي للعمل الأدبي، بل ارتبط مع الإنسان بعلاقات جوهرية، فالعناصر المكانية لا ترد بوصفها إطاراً غير ذي معنى، بل في الكثير تكون مشحونة بدلالات المكان وتجربته الحسية الخيالية.

والشاعر في أثناء تفاعله مع المكان يشرع فيه، ويبين صوره، ويكونها من مادته، ومن هذا المفهوم أو المنظور يشكل المكان في الأدب الأرضية الفكرية والاجتماعية ضمن زمن داخلي نفسي يخضع لواقع التجربة في العمل الفني.

ومن هنا كان الهدف من هذا البحث العمل من أجل إبراز دلالات المكان في الشعر العربي في السودان، ومحاولة الوقوف عند تجلياته بحسب رؤية كل شاعر، وكيفية تفاعله معه بحسب الحس الداخلي النفسي وواقع التجربة.

ومن أهم الأسباب والدوافع الكبرى لكتابة هذا البحث إدراكي التام لظاهرة حضور المكان ودلالاته وتجلياته في التجارب الشعرية في السودان المعاصر،

فلا يكاد يخلو ديوان من دواوين الشعر من الكتابة عن مدينة أو قرية، أو المكان في شكله العام مثل الصحراء والغابة.

والخلوات والدور والأمكنة التي لها صلة حسية أو معنوية بالشاعر، إلى جانب أن النقد الأدبي الحديث لم يلتفت إلى دراسة المكان في الشعر العربي من حيث أثره النفسي في الأديب إلا في جانب الوطنية، فكُتبت كتابات عديدة عن الحس الوطني ولكن ليست هناك دراسات في الأدب السوداني تناولت المكان من حيث دلالاته وتجلياته على الشاعر والأديب[1].

ولتحقيق هذه الرؤية لدراسة دلالات المكان وتجلياته في الشعر العربي في السودان رأى الباحث أن يتناوله في مبحثين:

المبحث الأول: دلالة المكان وتجلياته في الشعر العربي، وقد تضمن هذا المبحث دراسة مختصرة وشاملة تناولت دلالة المكان وتجلياته من العصر الجاهلي إلى وقتنا الحاضر.

المبحث الثاني: جاء هذا المبحث تحت عنوان: دلالة المكان وتجلياته في الشعر العربي في السودان، وقد تتبع الباحث هذه الظاهرة بشيء من التفصيل، وكان التركيز فيها على الأمكنة وأثرها في عملية البناء الشعري من حيث المعنى ودلالاته، ومعالجة الفكرة وتجلياتها في خاصية المكان، بوصفه ظاهرة من الظواهر التي يلاحظها كل قارئ للشعر العربي في السودان.

([1]) راجع د. جاسم العراقي- وفلسفة المكان في الشعر العربي- دار الكتب اللبنانية المصرية- ط 1- القاهرة- 1993م- ص112.

ثم الخاتمة وما تشتمل عليه من النتائج والتوصيات، مع قائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول
المكان في الشعر العربي

المكان في الشعر العربي، محور الإبداع، وميدان الخيال، وقد استطاع المبدع والشاعر أن يعيد خلق وتشكيل المكان في النص، وهذه وظيفة الخيال في إخراج المكان من شكله الهندسي إلى أن يتحد المكان في صفاته وملامحه طابعاً ذاتياً .

ومن هنا برز الشعر بوصفه فناً رافق المسيرة البشرية على مدى العصور، فقد جمل ملامح الفكر البشري، وكان المكان هو أحد الملامح البارزة للطابع القومي للأمم والشعوب، وعلى النطاق القومي للعرب، فقد اهتّم العرب بأمكنتهم اهتماماً قد لا تصل إليه أمة من الأمم عبر العصور، حتى أصبحت تلك الأمكنة في جانب منها قضية كبرى، ومن نتائج ذلك كثرة الشعر الذي قيل فيها، وتعدد الكتب والأسفار التي أُلفت عنها فكانت تاريخاً لحياة العرب، وليس أدل على ذلك من بروز المكان في الشعر العربي، خاصة في المقدمة الطللية، وفي رحلة الظعن فالشعر الجاهلي قد أرّخ ذاته بوله بالزمن **أولاً**، والمكان ثانياً، بتسمية المكان وتأطيره، وتجديده وتجسيمه، وبعثه في حياة متجددة .

وقد شكّل المكان بعداً مهماً لدى الشاعر الهائم في فضاء العشق والذكرى . وخير مثال الشعر العذري، وعلى وجه التحديد قيس بن الملوح في قوله:

أمَّر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدارَ وذا الجدارا (1)

وما حبُّ الديار شغفن قلبي * ولكن حبّ من سكن الديارا

ويأتي الشعر تجسيداً لذلك الشعور الذي تغلغل في ذات الشاعر، فالشاعر بطبعه يحنَّ إلى المكان، ويتأثر به في حالات حبه وهيامه . ولعل ارتباط المكان

(1) قيس بن الملوح- الديوان- تحقيق محمد البجاوي – مكتبة دار الكتاب العربي – بيروت – 1981م ص112.

بتلك المحبوبة لشاعر أدى إلى ولادة النص الشعري، وهذا بلا شك عامل مهمّ أيضاً من عوامل وجود المكان ذاته الذي يكتب الشاعر عن معاناته وألمه وحزنه .

ولقد أدرك الشاعر العربي منذ العصور القديمة أنه لا يستطيع أن يبرح المكان، وأنّ المكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء من هذا المكان، يخاطب الأطلال وتخاطبه، وليس عجيباً أن يكون للطلل وظاهرته الافتتاحية في مقدمات القصائد في الشعر الجاهلي وغيره، فإنه يبقى مكاناً واقعياً جغرافياً، تعرفه الذاكرة الجغرافية في أخبارها وأيامها .

والمكان دائماً في تاريخ الشعر العربي يعتبر بطاقة هوية لكثير من الشعراء، وقد استمر ذلك عند شعرائنا المحدثين، ولقد أحس الواصفون للأطلال نثراً وشعراً وعادوا على المكان بأوصاف الأنس والاجتماع .

والمكان ليس ذلك المعطى الخارجي الذي نعبره دون أن نابه به، وإنما المكان بعث وحياة لا يحده الطول والعرض فقط . إذن فالمكان وجود لا تحده حدود المادة، ولا يتقيد بسماتها وأبعادها الطبيعية، كما أنه ليس مجرد موضوع شعري أو ألفاظ تستحضر في قوام النص للدلالة المباشرة على المادة، وإنما هو وجود خلاق يفرزه الشعور، ويشكل الخيال حضوره الجمالي في النص الشعري، وهو في حضوره ذلك يمثل بنية فنية جوهرية لها أثرها البارز في فضاء الإبداع الشعري، وإحكام نسيج النص وتشكيله .

وقد تناول الأدباء الزمن بوصفه لحظة وقوع الحدث، أو وقت وقوع الإدراك، ولهذا فإن المكان هو موقع حدوثه . وفي ضوء هذا الفهم نستطيع أن نتبين سر اتجاه كثير من الآداب العالمية إلى مناجاة المكان الذي وقعت فيه بعض الأحداث، أو المكان الذي كان للشاعر فيه تجربة ما . ويتبين لنا هنا أيضاً، سر اندماج كثير من الشعراء والأدباء في مختلف الثقافات والآداب، في المكان الذي

هو محل التجربة كما قلنا، ونستطيع أن نتبين حقيقة ذلك من النظر إلى قول الشاعر الرومانسي (بايرون):

لا أحيا في نفسي
ولكنني أصبحت جزءاً مما يحيط بي
وما الجبال الشاهقة عندي
بأكثر من شعور [1].

ومن هنا تتضح لنا علاقة الإنسان بالمكان . وفي ضوء هذا فإننا نستطيع أن نفسّر العلاقة بين الشاعر الجاهلي، ومكان التجربة التي كان الشعراء يستهلون بها قصائدهم من مناجاة (الأطلال)، أو الحديث عنها، أو البكاء عندها – فلم يعد (الطلل) – بناءً على هذا المفهوم – كأيِّ مكان خرب، يتذكره الشاعر عندما يمر به، أو يتذكر أنّ حبيبته كانت تعيش في هذا المكان . إن الطلل هو مكان التجربة ذاتها التي عاش فيها الشاعر لحظات حلوة، أو لحظات لها تأثير من نوع آخر في نفسه، والطلل – كما ذكرنا – هو مكان التجربة، لا يضيره أن تجور عليه الرياح، والرمال، والبُهم، وما دام هذا هو شأن الطلل، فإنّ له قيمته وحرمته، وبالرغم من هجر حبيبته لهذا المكان، فالهجر لا يعني إلغاء قيمة مكان التجربة، أو إسقاطها من الحسبان .

وحديث الشاعر الجاهلي عن الرياح التي تسفو بعض ما تبقى من ديار الحبيبة، وحديثه عن البُهم ترتع في تلك الديار الدوارس، وحديثه عن آثار أقدام الحيوانات وبقاياها وفضلاتها، فهذا كله معقود في ذهنية الشاعر بهدف تخليد ديار الحبيبة، والاحتفاء بوجودها المكاني بعد مضى وجودها الزماني، أي بعد أن غاب أهلها وساكنوها، وأصبحوا جزءاً من ماضيها وتاريخها .

وعلى ضوء هذا الفهم، نستطيع أن نفهم القيمة الإشارية للأطلال، تلك القيمة المتميزة باستمرارية الوجود . ومن أجل ذلك كان الطلل ملاذ الشاعر الجاهلي، يقف عنده قبل إنشاء قصيدة، ليشاهد استمرار حبه وديمومته، فإن

([1]) روبرت جلنكر – الرومانتيكية ما لها وما عليها – ترجمة أحمد حمدي – الهيئة (المصرية) العامة للكتب- ط1 – 1986م ص298 .

الوقوف على الأطلال يعني إلى جانب ما ذكر بقاء الحب واستمراريته، والبكاء على الأطلال يعني الأسى والحزن على فراق الحبيب .

" وهكذا فإن استهلال القصيدة الجاهلية بالحديث عن الأطلال، يؤدي وظائف أربعاً هي:

1- استرجاع التجربة: ويتضمن أربعة جوانب رئيسة هي:

أ- المجرِّب (بكسر الراء المشددة) وهو الشاعر.

ب- موضوع التجربة: وهو صلته بحبيبته ولقاؤه بها .

ج- مكان التجربة: وهو الذي تشير إليه الأطلال .

د- زمن التجربة .

2- التعبير عن استمرارية الحب المستمدة من استمرارية بقاء الطلل ويعّبر عن ذلك تعبيراً رائعاً قول طرفة بن العبد البكري:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد [1]

وقول زهير بن أبي سُلمى:

ودار لها بالرقمتين كأنها * مراجيع وشم في نواشر معصم [2]

والحب في استمراريته ليس بعيداً عن الشاعر، بل هو لصيق به وما تشبيهه الأطلال بالوشم إلا إيحاء أو إشارة إلى التصاق هذه الأطلال بنفسه، وهذا يفسر لنا لماذا1 كان الوشم يتكرر في مثل هذه المواطن في الشعر الجاهلي .

3- فراق الحبيب والبكاء على هذا الفراق . ويتضمن الحديث عن الفراق أربعة جوانب هي:

أ- المفارِق: (بكسر الراء) وهو الحبيب لا الشاعر .

ب- المفارَق: (بفتح الراء) وهو الشاعر .

ج- الطلل: الذي هو محل بكاء الفراق .

د- زمن الفراق: وله وجهان: لحظة الفراق وتجدده بتجدد الحديث عنه .

([1]) مجموعة مؤلفين – قسم التأليف والترجمة – المعلقات العشر – دار الرشيد – دمشق – بيروت – مختارة من شروح: الزوزني – الشنقيطي – التبريزي- ط3 1988م ص 32 .

([2]) المصدر السابق - ص 18 .

4- تحرّي صمت الأطلال: صمت الأطلال في ذاته ليس رمزاً، ولكنه يؤدي وظيفة الرمز، حين يريده الشاعر أن يكون كذلك، وبهذا يشكل صمت الأطلال لغة وبياناً يفهم الشاعر حقيقتها وكنهها، ومحل فهم الأطلال: هو وجدان الشاعر وكينونته التي تعبر عن ذاتها باللغة والإشارة . والأطلال تعبر عن ذاتها بالصمت، كما نعبر عن أنفسنا بالكلام والإشارة . واستمرارية الصمت في الأطلال أمُر يتحدّى الشاعر أن يبث ما عنده، وأن يفضي إلى الأطلال بما في نفسه مثل قول دوقلة المنبجي في قصيدته اليتيمة:

هل بالطلول لسائل ردّ * أم هل لها بتكلم عهدُ [1]

درس الجديد جديد معهدها * فكأنما هي ريطة جردُ

من طول ما تبكي الغيوم * على عرصاتها ويقهقه الرعد

تلقاء شامية يمانية يمرُّ بمور ترابها صلد

ومنها أيضاً – قول لبيد بن ربيعة العامري:

عفت الديار محلها فمقامها * بمنىٍ تأبد غولها فرجامها [2]

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا * صمّ خوالد لا يبين كلامها

وهذه النماذج للمقدمات الطللية في الشعر الجاهلي تعبر لنا عن التحدي القائم بين لغة الصمت وبين الشاعر – فهو يعلم أنّ الأطلال لا تتكلم – كما قال الشاعر، فهذا واقعها الذي يراه الناس، فليس في صمتها أي إشارة بالنسبة لهم . وأما بالنسبة له (أي الشاعر) فالأمر مختلفٌ جداً، فإن في هذا الصمت ما يستثير عاطفته ويحرك مشاعره، فصمت كهذا إشارة تستثيره، ولذلك يقول كل ما عنده، بعد أن يقدم لذلك بالتحية لذلك المكان . ويبرز هذا في قول زهير بن أبي

(1) فاروق شوشة – أحلى عشرين قصيدة حب – دار العلم للملايين – د.ت ص 82 .

(2) مجموعة مؤلفين – المعلقات العشر – دار الرشيد ص 143 .

سُلمى:

فلما عرفت الدار قلت لربعها * ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم

فالتحية هنا ليست لذات المكان وإنما لصفته في أنّ الحبيب كان لاصقاً به ثم انفصل عنه وارتحل .

والشعر هو من الفنون التي رافقت المسيرة البشرية على مدى العصور، فقد حمل ملامح الفكر البشري، وكان المكان هو أحد الملامح البارزة للطابع القومي للأمم والشعوب، وعلى النطاق القومي للعرب، فقد اهتم العرب بأمكنتهم اهتماماً قد لا تصل إليه أمة من الأمم عبر العصور، حتى أصبحت تلك الأمكنة في جانب منها قضية كبرى، ومن نتائج ذلك كثرة الشعر الذي قيل فيها، وتعدد الكتب والأسفار التي ألفت عنها مثل (معجم البلدان لياقوت الحموي) فكانت هذه الأمكنة تاريخاً لحياة العرب، والمكان في الشعر له وظيفة تفسيرية، والأسلوب فيه أسلوب تعبيري يعتمد على تكثيف الزمان والمكان، فالمكان في الشعر يتشكل من خلال اللغة الشعرية التي تمتلك بدورها طبيعة مزدوجة، فالحسن بن هانيء (أبو نواس) الذي وقف ضد الأطلال، وسخر منها لا لشيء إلا أنها لم تعبر عن إحساسه بالمكان، ولم تكن قادرة على نقل الصدق الفني والشعوري لأنه لم يعش الأطلال حياة، ولكنه تعامل مع المكان المدينة (البصرة) تلك المدينة التي انطلق منها – تلك المدينة المجلجلة بالعلم، والمكللة بمفاتنها، فجاء مشحوناً بتلك الرومانسية التي استمد ظلالها من تلك البقعة المكانية التي ولد وعاش فيها طفولته، فأصبحت حياته مشحونة بمعاناته وآلامه، حاملاً عمق زمن تكاثرت فيه الأحداث وتتابعت، وترامت أمام عينيه، بما تحمله هذه المدينة من تناقضات ترجمها في شعره الممتلئ بأحاسيسه ومشاعره .

ومن هنا يبرز لنا أثر المكان في حياة الشاعر وبيئته، ولأجل ذلك وجد الشعراء أنفسهم يرتبطون بالأماكن التي يعيشون فيها، وإذا ما شطت بهم هذه الأمكنة اعتزلوا الناس، وشعروا بالذل والوحدة، فهذا النابغة الجعدي يدخل على سيدنا عثمان بن عفان قائلاً: أستودعك الله يا أمير المؤمنين، قال: وأين تريد يا أبا ليلى؟ قال: ألحق بإبلي فأشرب من ألبانها، فإني منكرٌ لنفسي . وهنا إشارة إلى

أثر المكان والفضاء الذي يُشعر بالراحة، والذي يمنح الحرية[1].

وقد عرفنا أيضاً أن المكان في شعر أبي نواس يمثل خصوصية إذ كانت مدينته مسرحاً للأحداث والوقائع، وعالماً جديداً للتطوّر والإبداع، وقد كان الشاعر أحد أقطابها البارزين، وعنصراً مهماً من عناصر التجديد التي اتخذت مذهباً جديداً فاستبدل الطلل بحياة المدينة المعاصرة بما فيها من حدائق غناء، ونوافير دفاقة، وأطيار وعصافير . فأحدث ذلك انقلاباً جذرياً شغل النقاد لماله من أثر في الشعر العربي . وتميز أسلوبه بالسخرية والتهكم حتى في رسم صور المكان، من ذلك سخريته الشديدة من الأطلال في قوله الشهير:

قل لمن يبكي على رسم درس * واقفاً ما ضرّ لو كان جلس [2]

فموقف الشاعر من الأطلال السخرية والتهكم من الشعراء الذين يقفون عندها، ويستوقفون الرفيق ويبكون .

ومع موقفه هذا نجده قد اضطر إلى الوقوف على الأطلال عامداً إلى التقليد، مع شيء من التبرم والشعور بالضجر لأنه يتكلف الوقوف على الأطلال تكلفاً إرضاء لأحد الخلفاء يقول في إحدى قصائده المدحية:

أعْر شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد * طالما أزرى به نعتُك الخمرا [3]

دعاني إلى وصف الطلول مُسَلِّط * يضيق ذراعي أن أرد له أمرا

فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة وإن * كنت قد جشمتني مركباً وعراً

والاحتفاء بالمكان ودلالاته وتجلياته عنصر كثير التداول في الشعر العربي من الجاهلية وحتى يومنا هذا.

واهتمام الشاعر بالمكان هو في المقام الأول دليل على أهمية المكان عنده

([1]) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني- ج1- م1- تحقيق محمد علي البجاوي- دار الكتاب العربي- 1965م- ص3، 191.

([2]) حنا فاخوري – تاريخ الأدب العربي – المطبعة البوليسية – بيروت – لبنان – د.ت ص 399 .

([3]) شوقي ضيف – الأدب في العصر العباسي الأول – دار المعارف – مصر – ط18 ص 254 .

من خلال العشق والحب لديه، وأحياناً يحب المكان لا لذاته وإنما لمن حلّ فيه .

ومن هنا وجدنا الشاعر العربي القديم قد أسرف في وصف المكان لا لشيء، ولكن لأجل حبيبته، تلك المرأة التي أخذت حيزاً كبيراً من تفكيره، ومساحة كبرى من عقله وشعوره حتى أفضت به إلى ما يشبه الجنون .

ويأتي الغزل إذا خامرت الشاعر الذكرى، ولوعة الفراق والشتات فيجسد صورة المكان والمرأة في علاقة وطيدة تهم الشاعر، ويقول طرفة بن العبد البكري:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم * يقولون لا تهلك أسي وتجلد [1]

ويشير هذا القول إلى لوعة الفراق التي أثار شجونها الطلل، كما يتضح في سياق البيت الذي يتضح فيه مدى تأثر الشاعر بالمكان الممزوج بألم الفراق، وهنا تأتي الديار والأمكنة بصفتها شيئاً مهماً لدى الشاعر، وهي لا تعني له شيئاً طالما تلك المحبوبة لم تعد فيها، ولم يبق سوى طلل له ذكرى .

المبحث الثاني

دلالة المكان وتجلياته في الشعر العربي المعاصر في السودان

" منذ أن خلق الله الكون مدّ فيه عصب الحياة، تعلق الإنسان بأرضه وارتبط بوطنه وتشبث، ففي رحابه نشأ، وفي جنباته تربى، وفي مسارحه نهض وفي مدارجه شبّ " فالأرض مهد الأجداد، وموئل الآباء، فمن الطبيعي أن يقوي التعلق بها، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ [2]. فقد جعل الله تعالى خروجهم من ديارهم مثل قتلهم، لذلك لم يكن بغريب أن يوصف أي شعور يقلل من حب الوطن، أو يزري من قيمته باللؤم

([1]) مجموعة مؤلفين - المعلقات العشر- معلقة طرفة بن العبد البكري- دار الكتب العلمية- ط 3- 1981م- ص47.

([2]) سورة النساء الآية (66) .

والخسة، يقول أبو هلال العسكري معلقاً على قول أحد الشعراء:

لا يمنعك خفض العيش من دعة * نزوع نفس إلى أهل وأوطان

تلقى بكل بلاد أنت ساكنها * أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ (1)

ومن عظيم ما قيل من شعر في حب المكان وعشق الأوطان ما ينسب إلى الأمير الأندلسي عبد الرحمن الداخل قوله:

أيها النازح الميمم أرضي * أقرِ من بعضِي السلام لبعضي

ففؤادي وساكنيه بأرضٍ * وجسمي ومالكيه بأرضِ

وذاكرة المكان في الشعر العربي المعاصر في السودان ترشح بحراك هائل من الموروث الذي يجسد صدق التعاطي بين الشاعر بصفته صاحب الذاكرة، والمكان بصفته مسرحاً للفعل، وبين كل فعل مدرك، أو حسٍ وجداني عاشه الشاعر أو عايشه من خلال انتسابه للمكان حقيقة أو مجازاً، ولهذه الذاكرة شفافية عالية، ومعيار رقمي عالٍ قوامه الوطن والهوية" (2).

وقد كان استحضار المكان في الشعر العربي في السودان، والوعي بالشخصية المكانية والمحلية السودانية من أوائل المرتكزات التي اعتمد عليها رعاة الأدب العربي في السودان، هذا الإدراك الذي نحس بصدقه في عكس وجدان هذه الأمة، وإبراز خصوصيتها في الزمان والمكان .

يقول المحجوب محاولاً إيجاد العلاقة بين السودان بوصفه مكاناً، والشعر السوداني بصفته تعبيراً عن ذلك المكان. يقول:" .. إنّ عرف الشعر حيّ نابض في قلب كل سوداني، فذلك الراعي يضرب على مزماره في الفلوات، وفي الليالي القمراء فيرجّع الفضاء نغماته، والذي طالما أثار في النفوس لواعج الشوق والحنين، وأعاد إليها ذكرى غرام مضى، وعهد دثر،ذلك دليل على تلك الشاعرية المتمكنة في النفوس . والجندي السوداني حاذق في فن الموسيقى يعيد

(1) أبو هلال العسكري – المعاني –ح2 دار الجيل – بيروت لبنان – د ت – 186 – 187 .

(2) عبد الهادي الصديق – أصول الشعر السوداني – دار جامعة الخرطوم للنشر ط2 1989م ص92 .

كل لحن يسمعه من حفيف الشجر، وتغريد الطيور وخرير المياه، ونغمات البشر، وهذه الحاسة الموسيقية الدقيقة دليل على رقة الإحساس، ورقة الشعور المتأصلة في طبيعة النفوس، دليل قاطع على أن هذه البلاد شاعرة مغرية بالشعر" [1].

وهذا القول يدل على الارتباط القائم بين الشاعر وإحساسه بالمكان، وتجلياته ودلالاته النفسية .

ومنذ ذلك الوقت والوعي بالمكان يتفتح في مسار الحركة الشعرية السودانية، وهي في سؤالها المستدام حول ما يمكن إضافته للشعر العربي من عناصرها المتفردة، وشعراؤنا الواقعيون طرحوا مرايا جديدة مستمدة من قراءة المكان، وإمكانياته المحلية، فألبست شعرهم خصوصية المكان ودلالاته وتجلياته، مما أضفى عليه نكهة ومزيجاً رائعاً من سحر المكان وعبقريته، وقد أشارا – أيضاً – إلى وعيهم بهذا الأصل، فكتب صلاح أحمد إبراهيم (غابة الأبنوس)، وكتب جيلي عبد الرحمن (قصائد من السودان) وكتب محمد عبد الحي (العودة إلى سنار)، وقد احتفى كل من محي الدين فارس، والفيتوري في كل دواوينه بالمكان الأفريقي .

" ويبدو أن النقاد قد تعودوا الإشارة إلى أثر المكان في الشعر بطريقة عارضة ومعممة كالحديث عن تأثر الشاعر بالبيئة وما إلى ذلك، وقد أخرج هذا التعميم المفعول الإيجابي لهذا البعد من الشعر " [2]. وهو يشير هنا إلى البعد الإنساني .. وفي إطار الحديث عن أثر المكان يقول الناقد المصري الشهير الدكتور محمد زغلول سلام " .. فأبناء البيئة والمكان الواحد قد يشتركون في ذوق واحد، وهذا الذوق يتسع، ويضيق، ويقوى، ويضعف، فأهل مصر مثلاً يشتركون فيه اشتراكاً قوياً، وهذا الاشتراك هو الذي يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار الفنية دون بعضها، ولا شك أن هذا الذوق يختلف إذا اتجهنا إلى جنوب القارة، كما أنّ هذا الذوق يختلف جزئياً من منطقة إلى أخرى داخل البلد

([1]) عبد الهادي الصديق – حداثة الشعر – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة – ط1 2007م ص 26 .

([2]) عبد الهادي الصديق – أصول الشعر السوداني – مرجع سابق- ص 54.

الواحد، والسودان بلدٌ ينفرد بظرف خاص به من التعدد والازدواج " [1].

ولو تأملنا هذه العبارة أدركنا أنّ الناقد لفت الانتباه إلى خصوصية التجربة، وعبقرية المكان، وتفرد البيئة السودانية " كما ألمح إلى التنوع الحضاري والتعدد الثقافي الذي ينفرد به الشعر العربي في السودان عن غيره من البلاد العربية الأخرى . ففي شعر محمد المهدي المجذوب مثلاً عناوين لقصائد تتميز بالتفرد الذاتي في رسم الملامح السودانية إذ لا نجدها إلا في الشعر العربي في السودان مثل (غمائم الطلح) أي حفرة الدخان – والمولد، والسيرة وغير تلك القصائد التي تعكس البيئة المحلية السودانية – وهناك شعراء آخرون استمدوا من المكان السوداني زخمه ومحليته، ويتفاوت أداء كل شاعر عن الآخر في مستوى الأداء الفني، مما جعل الشعر العربي في السودان يفتح موارد جديدة في الشعر العربي المعاصر، وما زال المكان يمثل عنصراً يفرض حضوره على النتاج الشعري السوداني .

ومن خلال قراءتي للشعر المعاصر في السودان وجدته قد أسهم بقدر وافر في رسم خارطة ركز فيها على عنصر المكان، وهناك شعراء كثر رسخوا الشخصية المكانية السودانية فمنهم من عكس حبه الذي وصل أحياناً إلى حد العشق والوله – ومنهم من ذكر فيه عذاباته وكرهه الشديد له – كما سنورد لذلك بين الشاعرين محمد الواثق يوسف ممثلاً للجانب الثاني والسماني الشيخ عبد المحمود الحفيان ممثلاً للجانب الأول .

وقد كتب الواثق ديوانه (أم درمان تحتضر) الذي ضمنه تسع قصائد كلها مُدى تطعن في خاصرة هذه المدينة الجميلة العريقة ملهمة الشعراء والأدباء . وقد جاءت كل الصور في هذه القصائد سالبة تصل هذه السلبية –أحياناً –إلى حد الدعاء على هذه المدينة بالزوال .

مثال ذلك قوله: في قصيدة (أم درمان تتزوج):

يا ريح عادٍ تحّري أين موقعها * وفجِّرِي فوقها غيظ البراكينِ

([1]) محمد زغلول سلام (دكتور) النقد العربي الحديث- مكتبة الكتاب العربي – القاهرة ط- 1971م- ص3.

واجعل إلهي لهيب النار ألسنة * مما تكون به ألحان نيرونِ

واستقص شأفتهم، واقطع سلالتهم * واعصف بطينتهم يا خالق الطينِ

إنك إلا تسوّيهم بأولهم * لا يلدوا غير أنماط الشياطين

وقد وصف المدينة وشبهها بالبغي الخائنة والفاجرة – كما أساء بنساء أم درمان يقول: في قصيدة (ثعابين أم درمان) .

قالت وقد جئت لأم درمان تأويني * أما تخاف بها لدغ الثعابين؟

من كل ملساء لا يبدو لها أثر * لا تقذف السمّ إلا بعد تمكين

ولا أخالك تنجو إن أصبت بها * رقطاء لدغتها بين الشرايين

إلى أن يقول:

فقد رأيتك يا أم درمان باخسة * مني العطاء عطاءً غيَر ممنون

وقد حبوتك يا أم درمان من كلمي * حكمة موسى جلاِها نطق هرون

ولكن وجدتك يا خرقاء مُعضلةً * جمعت بين شريف الفعلِ والدون

وقد جرّد هذه المدينة وساكنيها من كل جميل من الفعل والقول، يقول في قصيدة (أم درمان والانهزام) .

لا الدارُ دارٌ فيهتاج الفؤاد لها * والناس في دورهم من طبعهم خدمُ

والنيل أدكنُ في سَلساله كدرٌ * مما تبول عليه الناس والغنمُ

إن شاعرٌ قام في أحيائهم رَنما * جادوا بصمت فباخ الوزن والكلم

أو زهرةٌ نبتت كانت فؤوسهم * لها نشيج وأطّ حين تَجْتذمَ

لا الشعر يبعث في أرواحهم طرباً * ولا الزهورُ لها في أرضهم حُرَمُ [1]

وقد دعا عليها بالطير الأبابيل تدكها وتسويها بالأرض فتحول الأحياء والأشياء إلى رمادٍ وركام، يقول:

إذ سدَّتِ الأفق الغربي جائحةٌ * من الطيور تتالت سيلُها عَرِمُ

طيرٌ أبابيل في منقارها فِلقٌ * من الحجارة فيها النار تضطرم

ألقت حمولتها في دورهم بدداً * والناس هلعى عليها الدور تنهدم

وصارت الناس أشلاء ممزعةً * رأس يطيح وساقٌ ما لها قدم

وتكدّست دورهم من نتنهم جيفاً * والنيل تطفو على تياره الرمم

ثمَّت عاجت ضباع الأرض متخمةً * وحلّق البوم والغربان والرخم

وصحت تفزعني منهم جماجمهم * فالهول يعجز عن تصويره القلم [2]

ثم يتوالى شتمه لأم درمان ووصفها بالبغي الفاجرة التي سارت الركبان بسمعتها السيئة، ثم يسألها سؤالاً ملحاً من أبونا الذي حملت بنا منه سفاحاً –يقول:

حتى إذا همدت غلواء حدتها * عادت لسيرتها إذ شاقها الطرب

يا شيخة طرقت من قبل ما دفعت * مشت بسيرتها الركبان والحقب

يا أمنا من أبونا؟ ما حملت بنا * إلا سفاحاً، فكيف اليوم ننتسب

هذي نساؤك يا أم درمان قد * رضعت من عار ثديك لم يحفل بهن أبُ

ومن الشعراء من كانت علاقته بالمكان علاقة كره وصل إلى درجة الإسفاف من شتم وتجريح وإقذاع في صور قبيحة حتى في طبيعتها ونشير هنا

([1]) محمد الواثق يوسف – أم درمان تحضر ط2 – الخرطوم 1989م ص27

إلى حضور المعطيات الطبيعية ما يمكن أن يحمل على المكان من المتعلقات الأخرى كالشجر والنبات وغيرهما . وقد حاول الواثق أن يعيب هذه المدينة حتى فيما فيها من الطبيعة ففي الجانب السالب يقول الشاعر محمد الواثق:

لا حبذا أنت يا أم درمان من بلدِ * أمطرتني نكداً لا جادك المطر [1]

من صحن مسجدها حتى مشارفها * حط الخمول بها واستحكم الضجر

ولا أحب بلاداً لا ظلال لها * يظلها النيم والهجليج والعشر

وقد تجاوزت سلبية الشاعر تجاه هذه المدينة فأفرط حتى امتدت للنيل الخالد الذي قبحت صورته عنده وليس عند شاعر غيره من شعراء النيل، إذ يقول:

والنيل أدكن في سلساله كدر * مما تبول عليه الناس والغنم

ومن الشعراء من كانت علاقته بالمكان علاقة حب وتواصل تصل أحياناً إلى درجة العشق فينظر إليها بمرآة تبرز جماليات المدينة، فهي أغنية يصدح بها ويترنم بجمالها ، والأمكنة ذواتنا، أديمها من أجسادنا، وتقلباتها ثواني أعمارنا، كان أجدادنا عبيدها، وسجناء سطوتها في تعاقب فصولها، وصرنا سادتها نطِّوعها بأدواتنا كيفما شئنا" [2].

وبهذا المعطي يغدو المكان وطناً، تقفز في حضوره الذكريات دفعة واحدة فبينما هي الزمان والمكان في كينونة الشاعر – لأنها مدينة النشأة – فكم تغنى بها وصدح وترنم بجمالها، لأنها أرض الأجداد حتى قفزت في حضورها الذكريات دفعة واحدة فتاق فيها إلى الغائب الحاضر، كل هذا نجده في ديوان (أم درمان الحياة) للشاعر السماني الشيخ عبد المحمود الحفيان الذي كتبه رداً على صاحب ديوان (أم درمان تحضر) فشرع أبواب الهوى لأم درمان دفعة واحدة فصارت حبيباً نادمه وناجاه زماناً وأرتحل، وكأن حاله يقول ونبقى نحن يقين

(1) محمد الواثق- ديوان أم درمان تحتضر – ط2 الخرطوم – 1989م ص 11 .

(2)أ.د سلطان المعان–قراءات نقدية في حقول الإبداع والمعرفة–وزارة الثقافة والأردن ط2009م ص161.

ذلك الزمان المجبول بأرواحنا، فالشاعر السماني في سبيل الرد الاعتباري لأم درمان ومن أجل السعي لرد كرامتها التي سلبت، أطلق روحه عاشقاً يناجي المكان وتتأجج منه الأشجان . فكان الشعر أداته وصوته .

ثم يمضي بعد الدفاع عن هذه المدينة في استحضار جلال هذا المكان برفعته في صوفيته ورمزيته ومكانته، ثم استرق السمع لهجوم صاحبه الواثق من منطلق أبدي في أن " المكان مرجعية لا تقبل التأويل فهو الشاعر الراحل والذكريات والحلم القادم الذي نمتطي فيه مع الشعراء (وهج الطموح) ونسعى إلى الأمل في بستان الحب الداني القريب، لنحيا في المكان قطع الأشياء الصغيرة فيستأثر بنا كما يروق له ولنا .

وعندما كان في حضرة أم درمان الجغرافيا والذاكرة والحلم، فنثر أوراق الوطن وشرفاته تأسيساً للدهشة، فمنح قصيداً جعل منه التفاتة تاريخية لهذه المدينة فجعلها بؤرة إشعاع مركزية – وتمسك الشاعر السماني بالمكان واقعاً معيشاً – وتلمس هذا من عنوان الديوان (أم درمان الحياة) وهو عكس ديوان (أم درمان تحتضر) – فأم درمان حية ما دامت الحياة . فجاءت قصائده سحراً فيه تناغم وانسجام يرتقي بك إلى ذؤابات المجد تاريخاً لم يساوم أهله فيه على الحلم بل جبلوا فيه على الصدق والواقع .

ومن هنا أصبحت أم درمان عنده صدى الزمان الذي يؤطر منجز الأجداد، وبهذه الرؤيا كانت أم درمان في مرآة صاحب الديوان، وقد صحب هذا الشاعر مدينته أم درمان مع كوكبة من الشعراء الذين ارتبطوا بهذا المكان – وقد جاءت شعريتهم مشبعة بالملامح السودانية للمدن، وأم درمان هي السودان في مكوناتها الثقافية والإثنية والعرقية والدينية، وهي المدينة التي احتشد فيها عناصر التاريخ والبوح فعلاً شعرياً مُجَلياً، ففي التاريخ تحتمي بماضيها الأمثل، فتاريخها يعبق مجداً، ونيلها الخالد يرشها بعطر الندى فهو ليس أدكن في سلساله كدر كما أدعى الواثق، فهو نيل عمها بعبق الزمان، ومن هؤلاء الشعراء الذين عرفوا بعشق أم درمان والتغني بجمالها.عبد المجيد حاج الأمين، وحسين ضرار، وسيد أبو إدريس أبو عاقلة، والخير عبد الجليل المشرف الذي قال فيها:

هي بنت عز في مقالتها الدم * بالسيف تكتب حظها وتزمزم

تزهو على كل المدائن روعة * وتكاد من حسن لها تتكلم

تبدو على سمت بها مزدانة * رغم الصروف مع الزمان تبسم

لبست وشاحات الشموخ عزيزة * وزهت نضاراً والنظائر تزحم

سبقت إلى باح الجهاد وقدمت * نفراً على درب الشهادة أقدموا

إلى أن يقول في هذه القصيدة الرائعة في المدينة الرائعة:

هي أم كل الشعب نبض حياته * في كل ملتحم تجيء وتحسم

هي درع أمتها ونبض رجالها * ترد الغزاة بعزة لا تهزم

هي باقة الإحسان في عصر الضنى * هي نعمة، هي رحمة، هي بلسم

هي كل أنماط البلاد بشعبها * هي صفحة التاريخ إما تلهم

هذي هي أم درمان رمز إبائنا * تتزعم الدنيا ... ألا تتزعم

فالمدينة واحدة والرؤى مختلفة بين شاعر وشاعر، فالواثق كما عرفنا سابقاً، قد حدد رؤيته لأم درمان، وجعل منها عاهرة، وأما رؤية الشعراء الذين ذكرنا أسماءهم، وعلى رأسهم صاحب ديوان (أم درمان الحياة) فقد جاء بتسع قصائد بل هي قلائد وعقدٌ فريدٌ زان به جيد مدينة أم درمان – فقد رأى رؤية مختلفة عن هذه المدينة، وجعل من ديوانه بعثاً جديداً للحياة فيها، فقدم الدواء الناجع لمن زعم احتضار هذه المدينة، وحاول أن يضفي على أم درمان المثل والمباديء العليا والفضائل السامية التي غيبها الواثق عن بصره فرأى أم درمان بمرآة غير مرآتها، كما هاجم (مونيك) التي سلبت عقل الشاعر الواثق لأن الواثق مدح (مونيك) وموطنها وذم أم درمان ونساءها وترابها يقول: " ولكن ما الذي يمنع أن أرى من أم درمان رأياً مخالفاً لما كتب الواثق تحت عنوان (أم درمان تحتضر) فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، ثم ما ذنب من رأى في أم درمان الحياة، وبقعة النور والضياء، والأمل والرجاء، وساحة النصر والصفاء،

والحسن والبهاء، رآها عروسة النيل ذات الظل الظليل، وصاحبة التاج والإكليل، ورأى في نسائها الحور العين، ذوات الحسن والدين؟ لا ذنب له فيما أعلم خاصة، وأن الحب لا يعترف بالعقول ولا النقول" .

قال في هذه المدينة رداً على الواثق في إحدى قصائده:

نعم نعم بقعة المهدي مقبرة * لكل من جحدوا للحق أم كفروا

يا نعم آلي وهم بالحق قد جهروا * وللمساجد بالأذكار قد عمروا

قد شاقني بينهم أهل التقى نفرُ * من للمسيء إذا ما ساءهم غفروا

ويقول عذوبة ورقة تتدفق:

فالعقل زينته علمُ ومعرفة * من الشريعة لا من ساقط الفكر

إلى أن يقول:

قالت وقد بدت أم درمان راضية * جاءت مؤيدة تسعى لمنتصر

يا شاعر النيل فلتسع على الأثر * واحي القلوب بصوت الحق لا الوتر

دُرمان يا ساحة الذكار مرحمة * فلتأسري القلب حسناً ساعة السحر

وقد وصف في قصيدة أخرى أهل أم درمان قائلاً بعد أن أقذع ب (مونيك)

مونيك دعها فلا تشغل بها بالي * فراحة القلب راح الصحب والآل

أهل السماحة كم كانوا شموس هدىً * إلى الخير في بكر وآصالِ

الطيبون أهيل الخير إنهم * أهل المحبة أهل المشرب الحالي

وديوان (أم درمان تحتضر) من الدواوين الشعرية السودانية التي لقيت رواجاً كبيراً ليس لجودة شعر صاحبها فقط وإنما لأنه تناول المكان تناولاً قد مس طهارة وعفة المكان . هذا ما جعل سيل النقد الذي صاحب وثوب قصائده، فكثرت المقالات النقدية، وحوصر الشاعر في أماكن عديدة . وقد كثرت على الشاعر الردود الشعرية في محاولة لاستعادة عزة وكرامة أم درمان، ومن أبرز

هؤلاء التجاني عامر الذي كتب قصيدة تماثل (نساء أم درمان) وزناً وقافية، ثم توالى احتدام النقاش حول (أم درمان) وقد كتب النقاد حول هذا الديوان في مقالات، وبحوث، وكتب وقد ذكر للشاعر صديقه صديق أحمد حاج الأمين أنه بصدد إصدار ديوان يعارض فيه هذا الديوان، ولكنه توفى قبل أن يكمل هذا الديوان.

ومن أهم الردود التي ظهرت حول هذا الديوان – كما عرفنا سابقاً – ديوان (أم درمان الحياة)، وقد صدر هذا الديوان بمقدمة لشاعر (أم درمان تحتضر)، وقد رد على القصائد بيتاً بيتاً وقصيدة قصيدة على نفس الوزن والقافية، فيها نقدٌ قاسٍ من شاعر متمكن فصار الديوانان صنوين لفترة طويلة، لا يُدعي صاحب (أم درمان تحتضر) إلا وكان معه صاحب ديوان (أم درمان الحياة)، مما شكل حضوراً أدبياً كبيراً . كما نشر كتاب (فصول في الأدب والنقد) للدكتور صلاح الدين المليك تناول فيه قصائد أم درمان في مقالة طويلة كاد يخلص منها إلى أن أم درمان لا تعدو أن تكون رمزاً لامرأة حقيقية كانت قد ارتبطت بها حياة الشاعر في فترة من الفترات.وقد تناوله عبده بدوي في كتابه الشهير (الشعر العربي في السودان) قاصراً دراسته الموجزة على إحدى قصائده وهي (أم درمان تتزوج) .

وكما بينا سابقاً – فديوان (أم درمان الحياة) والذي تتجلى فيه القدرات الإبداعية والفكرية واللغوية للشاعر، فهو ليس معارضة لقصائد الواثق فحسب، بل هو محاكمة أدبية وأخلاقية للشاعر إلى جانب تقديم وتعريف لأم درمان باعتبارها رمزية لمعاني الأصالة والعلم، والدعوة، والأدب في السودان"، حين يقول:

درمان يا بقعة الأحرار مرحمة * قد شاد مجدك في هذي الدنا نفر

وقد حظيت أم درمان بنصيب وافر من الشعر الحديث الذي قيل في حبها وتمجيدها من الشعراء السودانيين، كما التفت إليها بعض الشعراء العرب الذين زاروها ونظروا إليها بمرآة الأدب والإبداع الشعري، وعلى رأس هؤلاء الشاعر الفلسطيني توفيق زياد: فقد كتب قصيدة بعنوان: أم درمان: المنجل والسيف

والنغم، وهي عبارة عن تهنئة شعرية إلى هذه المدينة ذات التاريخ الوطني العريق، وقد اتخذ من اسمها عنواناً لديوانه الجديد، تقديراً منه لدورها الطليعي البارز في إزدهار الحركة السياسية والوطنية المعاصرة وهو يقول: [1].

أعطني حبة سكر
منذ عامين وفي حلقي مرارة
أعطني حبة سكر
أم درمان تناديني، وفي قبضتها سيفٌ معطر
وأنا أشعر نفسي سيداً ينهي ويأمر
وكياني كله يخضر نشوان وينضر

ومجمل القول فالدلالة في الصور التي قدمها الشاعر محمد الواثق عن أم درمان، من وجهة نظر الباحث صور متخيلة تقوم المخيلة ببنائها وفق تصّور ذهني خاص، حتى ولو جاءت مطابقة في تصورها الخيالي لبعض الواقع . وقد حاول الشاعر ترتيب سمات يمكن عن طريقها معرفة المكان ودلالاته من وجهة نظر الشاعر، وأما السماني ففي نفس اتجاه الشاعر جاءت في قصائده بما يشبه تاريخ المكان أو سيرته .

فالشاعر الأول قام بتعرية هذه المدينة من الفضيلة، كما صورها عبر العلاقة بينه وبين الناس، وبينه وبين الواقع، وهي علاقة رمزية، كما قال بذلك بعض النقاد . وأما من حيث النسق المعرفي في قصائده فأحل شيئاً مكان شيء آخر . بل إن الشاعر الواثق في وصفه اللاذع لأم درمان، اتبع ما يدعو له علماء الأنثروبولوجيا ب (أساليب الصور الأيقونية) أي عادات وتقاليد وأنماط حياة شعب من الشعوب، كما بنى قصائده على نقيضين هما . أم درمان وفرنسا . وقد قلب الصورة الذهنية في فكر الشاعر، فأي المدينتين أحق بالإباحية؟ فأم درمان نلمس عفتها في ارتفاع مآذن مساجدها، والخلاوى، وتلاوة القرآن الكريم الذي

([1]) مصطفى عوض الله بشارة – أضواء النقد دراسات في القصة والشعر والنقد – الدار السودانية للطباعة ط1 1977م ص 116 .

امتلأت ألواحه بعبق مداد الكتابة والدواة والشرافة . وفرنسا التي هي قبلة لطلاب المتعة من جميع أنحاء العالم .

وأما الشاعر السماني عبد المحمود الحفيان فقد بعث في أم درمان الحياة من خلال بعث صور الأشياء والأزمنة والحركة في الأمكنة، فإنه ينسج تاريخاً بكل ما تشتمل عليه الذاكرة التاريخية وما ينعكس فيها من واقع، وقد أحضر الأزمنة جميعها في زمن واحد وهو زمنه بما في ذلك الحضور الصوفي المكثف في صوره المختلفة .

ومهما يكن من أمر فأوجه الاختلاف بين الشعراء في النظرة المختلفة والمتضادة في المكان الواحد، لا يقلل من قيمة المكان بقدر ما يدلل على ارتباط الشاعر بالمكان، وهذا الارتباط ليس ارتباطاً وجدانياً فقط، إذ إنه يتجاوز في عمقه ولوعته المعجم المكاني ليصبح لغة فياضة العواطف تجاه المكان، والحنين والنفور، والكره والمحبة .

وقد تناول شعراء سودانيون كثر المكان، فتارة يكون مدينة، وأخرى يكون قرية أو بادية أو فضاءً، ولعل من أميز ما كتب عن المكان كتاب (شعراء في مدائن الإلهام) للأديب مصطفى عوض الله بشارة، فهو كتاب يعد رصداً لعدد من القصائد مع شعرائها والتي تناولت المدن والقرى . وقد تحدث عن أشهر المدن: الخرطوم أم درمان، وبورتسودان، وكسلا، ومدني، والهلالية، والأبيض، ومليط، وشندي، والدامر، وبربر، ودنقلا. وقد جمع القصائد التي كتبت عن كل مدينة.

وقد تحدث الأستاذ فاروق شوشة الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة في تقويمه للكتاب قائلاً:" أجمل ما في هذا الكتاب أنه يستحضر عدداً من القصائد الجميلة التي أعدّها عشرات الشعراء السودانيين البارزين في ديوان الشعر السوداني الحديث، كاشفاً عن مدى انتمائهم للمدن السودانية التي ارتبط بها وجدانهم وتاريخهم في خيط موصول من الوطنية والانتماء، وإن كان يفضل عنصر المقارنة التحليلية بين شعراء المدينة الواحدة." [1].

ومن الشعراء السودانيين الذين احتفوا بالمكان وتناقضاته – إن صح

(1) فاروق شوشة- صحيفة الأهرام المصرية - أغسطس - 2009م -العدد 44799- بدون رقم صفحة .

التعبير – يتمثل في معظم ما كتبه الفيتوري من شعرٍ يعلي من شأن هذا المكان ويرفعه إلى آفاق عليا، فيجعله شرطاً من شروط الفردوس، وأحيانا نجده في مواقع كثيرة في شعره يكتفي بهذا المكان ولا يعدل به مكاناً سواه فهو الأجمل بين الأوطان جميعاً، كما نجده ينقلب على هذا المكان ويمطره بوابل من لعنته العنيفة الملتهبة فإذا به يهبط بهذا المكان فينزع عنه فردوسيته، ويجرده من عواطف المحبة والاحتفاء إلى مستوى الحضيض ويصب عليه نقمته، ولعنته، وسخريته .

الخاتمة

لقد بدا للباحث أن للمكان وجوداً لا تحده حدود المادة ولا يتقيد بسماتها وأبعادها الطبيعية، كما أنه ليس موضوعاً شعرياً أو ألفاظاً تستحضر في قوام النص للدلالة المباشرة على المادة، وإنما هو وجود خلاق يفرزه الشعور، ويشكل الخيال ملامح حضوره الجمالي في النص الشعري، وهو في حضوره ذاك يمثل بنية فنية جوهرية لها أثرها البارز في فضاء الإبداع الشعري، وإحكام نسيج النص وتشكيله.

والدراسة قرنت بين المكان وجماليات التشكيل والبناء، وقد تركز جل الاهتمام في محاولة جاهدة للكشف عن دلالة المكان وتجلياته في مظاهر البناء الفني للشعر العربي في السودان، وتنوع التشكيل الجمالي للمكان في النص الشعري، فجاءت محاوره رصداً متأنياً لجماليات المكان وتجلياته في العمل الإبداعي.

وفي سبيل الكشف عن جماليات التشكيل المكاني في النص الشعري استغل الشعراء السودانيون المعاصرون فاعلية الرموز المحلية والدينية والتاريخية والحضارية، كما وصفوا الرموز المكانية، واستعانوا بالقناع والرمز، كما جعلوا من الصوت والحركة وتحول المشاهد في النص الشعري تكشف لنا جماليات التشكيل المكاني، والارتقاء بالخطاب الشعري نحو آفاق أرحب، مما جعل كل شاعر ينفرد بتناول المكان.

وقد كشفت الدراسة أيضاً عن الأهمية القصوى التي يحظى بها المكان في العمل الشعري في الأدب العربي في السودان، إذ إن له أثراً بارزاً في تشكيل ملامح النص الشعري، وعلى تلك الأهمية لم تستقر القصائد عند مستوى واحد في جميع النصوص الشعرية كون الكلمة الشاعرة في تناولها للمكان ودلالاته وتجلياته لم تأت وفق رؤى متماثلة ومتوافقة الإحساس، فتباينت درجات رقي النص الشعري وفقاً لاختلاف الرؤى وتباينها، ومدى فاعليتها في استثارة وعي المتلقي وشعوره.

ويجتمعون في أنهم استحضروا المكان وجعلوه ماثلاً للعيان مع الحضور الذاتي والانفعال في بيئة المكان، فجاءت رؤيتهم نتاجاً للتفاعل مع ذواتهم وامتزاجها بالمكان.

كما جاءت الرؤية الداخلية إذ رأت المكان من منظور الكاشف لخفاياه الدالة على الشعور النفسي، وقد تجلى المظهر الجمالي والفني للمكان في النص الشعري عبر ما اتخذه من دلالات داخل الإطار النفسي العام.

وقد نجح البحث في إبراز ما تتسم به ألفاظ المكان في كونها محورية الحضور والأداء الوظيفي على حياكة نسيج لغوي متماسك مع الجمال الفني للتجربة الشعرية.

هذا توصيف مجمل للنتائج التي توصل إليها الباحث، وقد وردت العديد من النتائج الجزئية في أثناء البحث باستطاعة القارئ الاطلاع عليها في مواضعها.

وإذا كان هناك من توصيات، فهي دعوة ندعو إليها في ختام هذه الدراسة فإنا ندعو الدارسين في كل الأقطار العربية أن يتناولوا النصوص الشعرية من خلال دراسة المكان وأثره في عملية الإبداع الشعري وتجلياته بطريقة تسهم في كشف آفاق النصوص الشعرية التي تبرز جماليات المكان عبر رؤى نقدية جادة ومفيدة.